الخطاب القرآني من الإعجاز إلى الإبهار بالبيان
قراءة نقدية تقويمية

حاج بن سراي●

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة ناقدة لنظرية الإعجاز في منبتها وامتداداتها، ورصد النتائج التي ترتبت عليها، ليخلص - سدا للفراغ الذي يخلّفُه نقضُها - إلى اقتراح البديل الضروري الذي يحقق للمتلقي التفاعلَ الحي مع الخطاب القرآني، هذا البديل المبثوث في نص الوحي مُؤسَسٌ على الآية والبرهان لفظا ومصطلحا، وعلى الإبهار بالبيان منهاجا ومُؤدًى .

إنّ تقويم نظرية الإعجاز ليس إلا إنصافا للتراث الأصيل بالعودة به إلى منابعه الصافية وتنقيته من شوائب احتكار الحقيقة واحتقار الآخر.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني - الإعجاز - التحدي - الإبهار - البيان .

Abstract:

The aim of this research is to provide a critical reading of the theory of the miracles of the Quran: its origin and its extensions, and to observe its consequences, in order to provide a necessary alternative proposition that allows the recipient to interact directly within the Quran discourse. This alternative widespread to the text of the revelation is based on proof in term, and on the dazzling statement in method.

The evaluation of the theory of miracles of the Quran reinforces the inherent heritage by purifying impurities that conceal the truth and despise the other.

Keywords: Quran discourse - the miracles of the Quran - the challenge – the dazzle - statement.

تمهيد:

إن قارئَ القرآنِ الكريم قراءةً متبصّرة يتعلم من طريقته في الحوار والجدل كيف يتعامل مع كل الأفكار بمنطق النقد والتساؤل لا بمنطق القَبول والتسليم... إنه الكتاب الذي لم

●حاج بن سراي، أستاذ محاضر ب، قسم الأدب و الغة العربية، جامعة تبسة.

يزل يحرّض على إرجاع النظر وإعادة البحث والاستكشاف،نابذا التقليدَ،مسفّها العقلَ القَنوعَ باتباع ما كان عليه الآباء دون تمحيص.

ولا غرْوَ أن تظل القضايا التي تتعلق بالخطاب القرآني خصبةً وَلودا رغم كثرة التناول؛ إذ إنّ مدارك النظر تختلف باختلاف الدارسين وتتباين بتباين أزمانهم ومرجعياتهم الثقافية. ولعل من أهم تلك القضايا وأجدرها بالدراسة والتحقيق: قضية الإعجاز،فلقد شغلت الباحثين في مجال الدراسات القرآنية منذ أن قدح علماء الكلام زنادها، ويبدو أن جمر سؤالها سيظل متوقدا تحت رماد الأجوبة الجاهزة وإن طال عليه الأمد، وما ذاك إلا لأنها متعلقة بكتاب لا تنتهي أسراره، ولا ينضب معين البحث فيه.

ألا وإنّ تحقيق القول في إعجاز القرآن يحتاج إلى جهد كبير،يتطلب من الباحث اطلاعا واسعا على ما يزخر به التراث من مقولات يتفق ويختلف أصحابها،ويستوجب بصرا ناقدا لمستقرها ومستودعها، فلا جرم أن تأملا حصيفا لمرجعية تلك المقولات ومؤداها يسفر عن لزوم مساءلة ما رسّخته من خداع البديهة في العقل العربي الإسلامي ومراجعته،وهذا ما يروم هذا البحث الإسهام في تحقيقه منطلقا من فرضية تهافت فكرة الإعجاز مقترحًا تقديم البديل المعرفي الذي يسد الفراغ الذي تخلّفه.

1- محاولة حفرٍ نقدية:

يكاد يخيّل للقارئ أن موضوع الإعجاز قد أُنهك بحثا فلم يعد ثمة ما يُكتب فيه،وما ذاك إلا لأن التأليف فيه قد بلغ حد الإسراف،مع تكرار ممل أو مخلّ لأغلب مسائله،وكانت النتيجة أن غصّت المكتبة العربية الإسلامية بركام هائل ليس من السهل تنقيته وتمحيصه دون جهود جبارة من الباحثين المسلّحين بمنهجية تعتمد آليات الحفر في الطبقات المتراكمة على مر السنين،والمتدرّعين بسابغات الموضوعية العلمية،ألا وإن الأمر يحتاج إلى روح نقدية وصبر جميل لا بد أن يتمتع بهما الباحث ليتمكن من مقاربة هذه المسائل بشكل علمي.

لا بد -بداية- من العودة إلى المرحلة التأسيسية التي تخلّقت فيها نطفة هذه الفكرة؛فلعل ذلك يكشف كيف أنّ الرحم التي اتسعت لجنينها وأنجبته قد خلعت عليه نوعا من التمويه؛لم تعد تتبين معه ظروف النشأة الأولى،فنُسب المولود إلى غير مُنجبه،وسمّي بغير اسمه. نحتاج هنا إلى استدعاء قراءة المؤرخين لإضاءة الزوايا المظلمة لتلك المرحلة القديمة التي شاركت فيها الفرق الإسلامية والمذاهب الكلامية مشاركة فعالة في بحث مسائل الإعجاز القرآني،ولا يخفى مبدئيا ما كان للجدل من دور فعال في إذكاء المناقشات وإثراء الحركة التأليفية في هذا المجال.

إن الوعي بملابسات تلك الفترة من التاريخ الإسلامي ضروري لتأسيس الفهم عن طريق تشريح الأفكار التي رشحت عن ذلك الجدل والتدافع المعرفي،وكقراءة أولية يمكن القول بأن انغماس المفكرين آنذاك في المناظرات -بما تتضمنه من حب الغلبة والتفوق على الخصوم -

لم يخوّلهم التحررَ من صبغة الانغلاق والعناد المفضي أحيانا إلى التعصب،لقد وصف الرافعي هؤلاء المتكلمين وصفا بليغا حين قال: « إن هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم في منخل»[1] ،معنى ذلك أن الأرض التي غُرست في تربتها أفكارهم أصبحت حقل ألغام يُنذر بإهلاك من لم يقدّر موضع القدم قبل الخطو...

تأسيسا على ما سبق ذكره؛لا يمكن استثناء قضية الإعجاز من هذا الوضع المشحون بالجدل والتعصب،وقد قدم المؤرخ محمد محمود شاكر قراءة تاريخية كاشفة مضيئة لما أعتم من ملابسات وظروف ميلاد فكرة الإعجازِ والجدلَ الذي صاحبها،يقول - محددا المنطلقات الفكرية التي أسس عليها المتكلمون دعواهم بأن القرآن معجز:«دخل المتكلمون ساحة النظر والاستدلال،ومعمعة الجدل والخصومة من بابين كبيرين: باب الإلهيات وباب النبوات، فمن باب الإلهيات أفضوا إلى طلب البرهان على وجود الله سبحانه وتنزيهه وتوحيده...»[2]،ثم يردف قائلا: «... ولما دخل المتكلمون من باب النبوات يلتمسون الحجة على تثبيت صحة بعثة الرسل وعلى وجوبها،نظروا في آيات الأنبياء الدالة على صدق نبوتهم،(...) ونظروا في شرط الآية حتى تكون ملزمة للناس في تصديق مدّعي النبوة والتسليم له بأنه نبي لله،فرأوا أنّ "مدار الآية على عجز الخليقة"،فلا تكون آية حتى تعجزهم»[3].

إذن من هنا كان المنطلق، ولكن ما أفضى إليه جهد المتكلمين من عملية التأسيس هذه كان يفتقر إلى التطبيق أو الإسقاط على ما يوصف بآيات الأنبياء،وكان لا بد من اختبار صحة هذا الشرط الذي اخترعوه وصدق انطباقه على آيات الأنبياء وعلى القرآن الكريم بصورة خاصة،« فلما أحكموا الاستدلال والنظر في هذا الشرط وقلبوا له الوجوه حتى فرغوا جاؤوا إلى القرآن -وهو كلام الله وآية نبيه ﷺ على صدق نبوته- فرأوا أن الله سبحانه أبى على المشركين أن يجيبهم إلى ما طالبوا به من الإتيان بآية أخرى كآيات الأنبياء من قبله،وما هو إلا القرآن كلام الله، (...) وتورط المتكلمون في الحيرة فقد خرجوا من باب الإلهيات ودخلوا باب النبوات ومعهم اليقين بأن مدار الآية على عجز الخليقة وأنها لا تكون آية حتى تعجزهم،فوجدوا هذه الآية وهي القرآن كلام الله مخالفة تمام المخالفة ومن كل وجه لجميع آيات الأنبياء من قبله -ﷺ- في قرب تسليم المشاهد لها والسامع بها بأنها خارجة عن طوق جميع الخلائق، حتى يشهدوا على أنفسهم بالعجز عن فعلها، كآيات موسى وعصاه وكآية عيسى في إحياء الموتى،مما لا تقدر عليه الخليقة أو تطمع في فعل مثله،فكيف يكون كلام عربي مبين آية على شرطهم هذا في العجز الذي تسلّم

---

1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1425هـ-2005م، ص:102.

2) مداخل إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ط:1، 1423هـ-2002، ص: 35.

3) المرجع نفسه، ص: 38.

به بديهة المعاينة وبديهة العقل وبديهة قدرة الخليقة؟»[1]

هذه المساءلة التي قدمها محمد محمود شاكر لأصحاب هذه الفكرة لم تكن تخفى على قرائح طائفة من المتكلمين،يبدو أنهم هم الذين تولوا إرساء قواعد القول بالإعجاز وتثبيت أركانه،ويتعلق الأمر بالمعتزلة،فإبراهيم بن سيار النظّام (ت231هـ) وتلميذه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ)كانا أول من اقترح هذه المقالة ونافح عنها،كما رجح ذلك محمود شاكر بقوله: «فالأمر البيّن الذي لا يستره إبهام ولا غموض هو أنهما هما اللذان كانا أول من وضع هذا الشرط:مدار الآية على عجز الخليقة،ثم تداولاه معا حتى صاغاه هذه الصياغة ثم مرا به معا على آيات الرسل فلما جاءا إلى القرآن العظيم آية نبينا ﷺ وقفا معا على غموضه وإبهامه وفساده الخفي »[2]،لكن العلم بالمعضلة لم يدعُهما إلى مراجعة الشرط الذي وضعاه،بل ألقى بهما في بحر زاخر بالتبريرات والتخلصات والتمويهات،حتى ألقاهما موجه إلى ساحل القول بالصرفة، وهو ما ستتم مناقشته فيما بعد.

وفي خضم تلك الرحلة المحفوفة بالشك ووهم الوصول إلى الحقيقة تولدت مصطلحات الإعجاز والتحدي والمعارضة التي أصبحت فيما بعد بمثابة الأوصاف التي لا تنفك ولا تنفصل عن القرآن الكريم من جهة كونه آية دالة على صدق النبوة وصحة الرسالة.

هذه إذن المحاولات الأولى التي تأسست من خلالها مقولة الإعجاز التي تمكنت فيما بعد من بناء هيكلها بمضامين ومصطلحات أتاحت لها أن تبدو صرحا متماسكا لا يرى فيه عوج ولا أمت،وهنا تظهر أهمية القراءة النقدية التي تفكك مكونات هذا الصرح عن طريق تعريض تلك المصطلحات والمضامين للمساءلة والمقارنة بما يقوله النص القرآني نفسه،والبداية ستكون بمصطلح المعجزة وما يتحالف معه في بناء نظرية الإعجاز كمصطلحي التحدي والمعارضة ...

2- بدعة المصطلح والتأصيل المستحيل:

تنطوي مقولة الإعجاز على مشكلات جمة بدءا من مصطلح المعجزة وانتهاء بالنظريات المفسرة لسر الإعجاز في القرآن والجدل الذي انتعش من خلالها،ولعل المشكلة الأولى التي تنتصب سؤالا محرجا في طريق المدافعين عن هذه المقولة والمتحمسين لها يكمن في غياب مصطلح المعجزة أو المعجز كوصف للقرآن الكريم في نصوص الذكر الحكيم،فلقد ذكر

---

1) المرجع نفسه، ص ص: 38-39.

2) المرجع نفسه، ص: 51.

العلماء أن الله تعالى قد وصف كتابه الكريم بأكثر من 51 وصفا وعدوها أسماء له[1]،وقرر بعضهم أن الإعجاز وصف ذاتي للقرآن الكريم[2]،فيبقى - والحال هذه - إغفال الوحي لهذا الوصف مدعاة تساؤل ومحط ريبة،لاسيما إذا كان القرآن قد استعمل مشتقات هذا اللفظ في مواطن أخرى تكررت 26 مرة في القرآن الكريم [3]،لم يكن موضع منها خاصا بالقرآن كوصف إطلاقا.

والأمر نفسه يقال عن مصطلح التحدي، فهذا اللفظ غائب غيابا كليا من نص القرآن الكريم،على ما في أسلوب القرآن من وفرة الحوارات وكثرة عرض للجدل القائم بين الحق والباطل وبين الأنبياء ومعارضيهم ! فلا جرم أن هذا الغياب يدعو إلى إعادة النظر في أمر المصطلحين (الإعجاز والتحدي) والتنقيب عن أسباب اجتراحهما من قِبل واضعيهما،وتأمّل ما أدّى إليه اعتمادهما من النتائج التي تحمّل أوزارها العقل العربي الإسلامي وثقافته.

لقد ذكر محمد محمود شاكر أن كلاّ من لفظي الإعجاز والتحدي لفظان حادثان مُبتدعان،وذلك في معرض بحثه التاريخي عن منشأ اللفظين وملابسات دخولهما إلى الثقافة واعتمادهما من قبل الواضعين لهما، فأما لفظ المعجزة فيقول بشأنه:«إعجاز القرآن :لفظ وُضع في أواخر القرن الثالث للهجرة»[4]،وواضح أنّ تأخر استعمال هذا اللفظ كل هذه المدة يدعو لتأمل الفراغ الذي كان يشغله غيره،خصوصا مع شدة تعلق الناس في القرون الثلاثة الأولى بالقرآن وما يتصل به من أوصاف وبالنبوة وما يتعلق بها من الدلائل،كما يدعو لتفحّص سرعة انبثاق المصطلح وشيوعه بعد هذا القرن،يقول محمد شاكر: «إن لفظ الإعجاز في قولنا: إعجاز القرآن ولفظ المعجزة في قولنا: معجزات الأنبياء،كلاهما لفظ محدث مولد وبيقين قاطع لا نجدهما في كتاب الله ولا في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم-ولم أجدهما في كلام أحد من الصحابة ولا في شيء من كلام التابعين من بعدهم، إلى أن انقضى القرن الأول من الهجرة والقرن الثاني أيضا،ثم نجدهما فجأة يظهران على خفاء في بعض ما وصلنا من كلام أهل القرن الثالث،ثم يستفيضان استفاضة ظاهرة غامرة في القرن الرابع وما بعده إلى يومنا هذا. فكلاهما إذن محدث مولد »[5]،والأمر نفسه بالنسبة لمصطلح التحدي وهو مصطلح له وزنه الثقيل في نظرية الإعجاز على اختلاف مذاهب القائلين بها،وينطبق عليه ما ينطبق على

---

1) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: أحمد بن علي دار الحديث، القاهرة، 1425هـ-2004م، 167/1 وما بعدها.

2) مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الحديث، القاهرة، 1422هـ-2001م، 17/1.

3) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: أحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ص:446.

4) مداخل إعجاز القرآن، ص: 8.

5) المرجع نفسه، ص: 19-20.

مصطلح الإعجاز كما يرى محمد شاكر حيث يقول:« لفظ آخر مقترن اقترانا لا فكاك منه بلفظ الإعجاز،وهو لفظ التحدي في قولهم:إن النبي يتحدى أهل زمانه بما يظهر على يديه من المعجزات. وهذا اللفظ أيضا محدث مولّد،ليس في كتاب الله ولا في حديث رسوله ﷺ،ولا نجده في كلام الصحابة أو التابعين ومن بعدهم إلى أن يظهر بعض الظهور في كلام أهل القرن الثالث،ثم يستفيض هو أيضا استفاضة غامرة ظاهرة في القرن الرابع وما بعـــــده إلى يومنا هذا »[1].

إن اختباء واضعي هذين المصطلحين خلف أكمة التاريخ الغامض سهّل نسبة الحادثة إلى مجهول،وأُحسن الظنُ بها لما تضمنته من خداع للعقل،فخُيّل للناس أنّ المصطلحان وليدا نصوص الوحي؛يقتضيان ما تقتضيه تلك النصوص،وأصبح الاعتراض عليهما أو التشكيك فيهما ضربا من الاعتراض على النصوص المقدسة،ولذلك يغدو من الضروري اللازم كشف الفاعلين الحقيقيين الذين تولّوا كِبر هذه العملية،واكتشاف أغراضهم من وراء فعلتهم بعد ذلك،حتى يتسنى فهم المعضلات التي رشحت عن أقاويلهم وتصوراتهم في هذه المسألة.

لقد ذكر المؤرخ محمد شاكر أن لفظي الإعجاز والتحدي قد نبتا في تربة المعتزلة وارتويا بماء الاعتزال،ولئن كان النظام والجاحظ هما المؤسسان الرئيسان لنظرية الإعجاز؛فإن من جاء بعدهما من أبناء المذهب قد تولى تشقيق المصطلحات واختراعها،على أنّ الجاحظ كان أوّل من مهد لهم السبيل باستخدامه للفظ التحدي،يقول محمد شاكر: «ولفظ التحدي الذي نجده منذ أواخر القرن الثالث ثم القرن الرابع مقترنا بلفظي الإعجاز والمعجزة هو فيما أستظهر أسبق الثلاثة وجودا في لغة المتكلمين،وهم أصحاب علم الكلام كالمعتزلة وأشباههم،فالجاحظ وهو خطيب الاعتزال وأحد رؤوس فرق المعتزلة وأقدمهم وأكثرهم كتبا وصلت إلى أيدينا - أتى بلفظ التحدي على ندرة في رسائله»[2]،ثم جاء بعد الجاحظ من استلهم من كتاباته ما هيّأ له اختراع مصطلح الإعجاز،كما رجح محمد شاكر: « ولكن الذي لا ريب فيه أن أبا عبد الله الواسطي المعتزلي قرأ كتب الجاحظ، ولا سيما كتابه: "نظم القرآن"،وهو أول ما ألّف في معنى إعجاز القرآن،فكتب أبو عبد الله كتابا سماه: إعجاز القرآن،وكان لهذا الكتاب شهرة مستفيضة عند المتقدمين من أصحاب البلاغة،وكلهم اعتمد عليه فيما كتب،فأنا أظن أنه هو أول من استخرج ما كان دانيا في كتب أبي عثمان وتجاوزه لسانه،فولّد لفظ الإعجاز،وإعجاز القرآن،وأكثر من ذكرهما مقترنين بلفظ التحدي،فاستفاضت من بعده هذه

1) المرجع نفسه، ص: 20.

2) المرجع نفسه، ص: 23.

الألفاظ الثلاثة وفشت وجرت بها ألسنة الناس إلى اليوم»[1].

هكذا -إذن- نشأت هذه المصطلحات،وطال على الناس الأمد فثُبّتت في عقولهم وعلى ألسنتهم تثبيتا يصعب معه التخلي عنها أو حتى مناقشتها ومساءلتها. غير أنّ ثمة أمرا أهم من المصطلح،وهو مفهوم هذه المصطلحات وما تنوء به من حشود المعاني،وما تتضمنه من معضلات عند تطبيقها على النص القرآني أو مقارنة دلالاتها ومحمولاتها وعرضها على ما ينص عليه هذا النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولعل ذلك يمر حتما بتقديم تعريف للمعجزة ومناقشته.

2- تعريف المعجزة وبيان شروطها:

عرّف السيوطي المعجزة بقوله: «اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة ومقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة»[2]،لا ريب أن أهمية هذا التعريف تكمن في تحديده لشروط المعجزة،لكن المشكلة قائمة في تطبيق هذه الشروط على القرآن،فخرق العادة يظهر جليا في آيات الأنبياء السابقين لكنه يخفى ولا يكاد يستبين في آية محمد ﷺ الكبرى كما ذكر محمد شاكر من قبل،كما أن الاقتران بالتحدي والسلامة عن المعارضة يُحدثان مشكلات عند تطبيقهما على القرآن الكريم،وتفصيل ذلك أن خرق العادة يعني مخالفة المألوف،فإذا كانت آيات الأنبياء السابقين مما يظهر فيه خرق العادة بالبداهة،فإن الأمر في آية -محمد ﷺ- يختلف تماما،يقول محمد شاكر بهذا الصدد: «آيات الرسل جميعا حاشى القرآن، العجز فيها قريب سهل المأخذ وسهل أيضا أن يقبله العقل قبولا مغريا بالركون إلى صحته والاقتناع به،أما العجز في شأن القرآن فإني وجدت الأمر مختلفا أبين الاختلاف »[3]،وهذا الاختلاف مهم جدا في كشف حيل وألاعيب القائلين بالإعجاز من حيث جمعهم للمتناقضات داخل نسق واحد،ذلك أن ثمة فرقا بين أن يجد الإنسان في نفسه القدرة على الفعل ويبتدر للمحاولة وبين أن يعدم القدرة أصلا ويحجم عن محاولة الفعل،فما لاحظه المتكلمون وهم يستعرضون مفهوم الإعجاز أن «آيات الرسل جميعا حاشى القرآن العظيم العجز فيها ليس عجزا عن فعل طولبت الخلائق بفعله أو الإتيان بمثله فظهر عجزهم عنه وقد حاولوا فعله،بل هو تسليم مبتدأ محض بأن الذي رأوه أو سمعوا به داخل دخولا مبينا في قدرة الخلاق العظيم وحده،وخارج خروجا مبينا عن قدرة جميع الخلائق التي خلقها الله سبحانه،ومعنى ذلك أن هذا الذي سموه عجزا من الخلائق ليس على الحقيقة عجزا منهم عن شيء طولبوا بفعله بل الآية التي يرونها أو يسمعون بها هي فعل

---

1) المرجع نفسه، ص: 28.

2) الإتقان في علوم القرآن: 303/4.

3) مداخل إعجاز القرآن، ص: 43-44.

ممتنع أصلا على جميع الخلائق غير داخل في قدرتها »[1]،أما القرآن الكريم فالأمر فيه مختلف،لأنه كلام عربي،والناس يستطيعون الكلام بالعربية،فالزعم بأنه خرَق العادة وخالف المألوف لا يتقبله العقل بداهة،لذلك لجأ المتكلمون إلى البحث عن طريقة يجعلون بها القرآن خارقا للعادة والمألوف كسائر آيات الأنبياء رغم أن الفروق تبقى واضحة بينهما،بسبب طبيعة آيات الأنبياء الممتنعة أصلا وفطرةً عن الناس أجمعين،وعدم امتناع طبيعة آية محمد -ﷺ عنهم،وتكاد تنحصر الآراء الملقِّقة للأدلة والتفسيرات -حسب أهميتها وقوتها- في رأيين هما:الرأي القائل بالصرفة،والرأي القائل بالبلاغة والبيان.

هذا ما يعرف في تراث الدراسات البلاغية والإعجازية لدى الباحثين بمسألة سر الإعجاز،ولو كان الأمر فيها من الوضوح والبيان كما هو الحال في آيات الأنبياء السابقين لما تعددت التفسيرات ووجوه النظر إلى حد التباين والتناقض والصراع،ولا ريب أن مسألة سر الإعجاز أو وجوه إعجاز القرآن مما يحتاج إلى مزيد بيان وتوضيح يتكفل به الحديث عن نتائج ومآزق وجوه الإعجاز.

وأما الاقتران بالتحدي فلا يخلو هو الآخر من عقبات كؤود عند محاولة تطبيقه على القرآن الكريم،ذلك أنّ معنى التحدي قد تعرّض إلى تحوير وتزييف،فقُلب قلبا شاع معه المعنى المزيف واختفى المعنى الحقيقي الأصلي،والعودة إلى المصطلح في أصل وضعه اللغوي يكشف حجم الخديعة التي تعرض لها العقل المسلم وهو يستقبل القرآن الكريم معتقدا أن الله تعالى قد تحدى عباده به كما تحداهم بسائر المعجزات التي أيد بها أنبياءه.

لقد نصت المعاجم اللغوية على أن معنى التحدي في اللغة هو المباراة ومنازعة الغلبة [2]،وذكر الزركشي معناه الاصطلاحي بقوله: «يقال: تحدى فلان فلانا إذا دعاه إلى أمر ليظهر عجزه فيه،ونازعه الغلبة في قتال أو كلام أو غيره»[3]،بمعنى أن المتحدّي يفعل فعلا بغاية منافسة خصمه والتفوق عليه فالفعل موجود من الخصم ابتداء ومن المتحدي منازعة ومنافسة،لكن هذا المعنى لا يستقيم مع المعنى الذي فرضه القائلون بالإعجاز بل هو مناقض له تماما من حيث المبتدئ للفعل والمعارض له،وفي هذا المعنى يقول محمد شاكر:« وأما التحدي الذي نحن بصدده، وهو المستفيض على ألسنة الناس إلى اليوم،والمبثوث في كل كتاب فهو على عكس هذا المعنى بلا ريب،وهو أن تفعل أنت فعلا ثم تطالب خصمك بأن يبذل غاية جهده في معارضته والإتيان بمثله. وأنت على ثقة من أنه غير قادر على مثل هذا الفعل، طالبا بذلك

1) المرجع نفسه، ص: 44.

2) لسان العرب:أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، تح: عبد الله علي الكبير وآخرين،دار المعارف، القاهرة، 808/2.

3) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 91/2.

إظهار عجزه وضعفه عن مساماتك أو غلبتك أو الظهور عليك،وهذا هو المعنى المقصود عند ذكر الأنبياء وتحدّيهم الناس بمعجزاتهم،فالنبي لا يأتي إلى شيء مذكور عند الناس بالتفوق فيقصد أن يعارض هذا الشيء طالبا لمساماتهم والغلبة عليهم،بل يأتيهم بشيء يعلم أنه خارج عن قدرتهم ويطالبهم بمعارضته والإتيان بمثله،طالبا لإظهار عجزهم عجزا يوجب التسليم له بأنه نبي من أنبياء الله سبحانه وهذا عكس المعنى الأول الذي تنص عليه اللغة »[1].

إنّ رجال الاعتزال الذين حوّروا وبدّلوا معنى التحدي لم يفعلوا ذلك إلا ليستقيم لهم بناء نظريتهم في الإعجاز وقد تمّ لهم ذلك بدهاء عجيب،« فقد أملوا على الناس وأقنعوهم بنظرهم الثاقب والذكي أن القرآن يتحداهم، فنقلوهم بهذا النسق إلى التحدي،واستحضروا آيات الحض بوصفها تحديا -كما أبدت لهم مخيلتهم ذلك مكرا من عند أنفسهم - وطالبوا الأمة بالإتيان بمثلها. ولما لم يكن بمقدور أحد أن يدخل هذه اللعبة وأن ينجح فيها فيتحدى القرآن ويتحدى الله ﷻ،فقد وقع الناس في فخ المعتزلة ودخلوا نسق العجز طائعين قانعين»[2].

إن التحدي الذي أرساه هؤلاء المتكلمون ودبّروا أمره بليل قد تمت إحاطته بسياج خدوع من التلفيقات والاستدلالات التي اعتُمد فيها على الأدلة النقلية من النص القرآني حتى يبدو أصيلا،حيث تمّ استدعاء الآيات التي تتضمن طلب المعارضة وزُجّ بها في حرب الدفاع عن مسلّمة التحدي والإعجاز،وكانت عملية التمويه متقنة؛إذ لم يُتفطن للمزالق التي نجمت عن استخدام تلك الآيات كسلاح لا يتناسب مع ميدان المعركة،وكانت النتيجة إما عملية تولّ وفرار أمام الوضعيات الحرجة ومكامن الرصد التي يقيمها الخصم المحتمَل،وإما تعمية وتلفيق أمام التساؤلات التي يتقدم بها الحليف المتضامن،غير أننا نرجئ تفصيل الحديث عن تلك المزالق والمآزق التي أدى إليها اعتماد مبدأ التحدي إلى حين الفراغ من بيان الأسباب التي دعت إلى تأسيس هذه النظرية برمتها،واختراع ما يشدّ أسسها من جهاز مصطلحي ومفاهيمي. لكن يكفي بهذا المقام أن نقول بأن التحدي لا يستقيم مصطلحا ومفهوما مع الثقافة الإسلامية التي أراد لها الله تعالى في قرآنه الكريم أن تكون ثقافة رحمة وهداية للناس،تمييزا لها عن مقولات الجاهلية وأفكارها الخرافية المبنية على الزيف والتضليل،يقول منذر عياشي:« إن الله في الإسلام لا يتحدى عباده ولكنه يدعوهم ويحضهم،وهو بهم رؤوف رحيم،ولذا نعتقد أن مفهوم التحدي الإلهي ليس مفهوما إسلاميا؛إذ لم يرد له في القرآن ذكر ولا في صحاح الحديث،ولم تعرفه الثقافة الإسلامية قبل القرن الثالث الهجري،بدليل أن أحدا من الصحابة لم يقل به أيضا،وإذا كان ذلك كذلك فإننا نميل إلى القول إنه مفهوم جاهلي،بل مفهوم لآلهة الأساطير

1) مداخل إعجاز القرآن، ص: 21-22.

2) القرآن إعجاز أم إبلاس: منذر عياشي، فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد: 85-86، ربيع-صيف2013، ص: 18.

والخرافات،وقد وجد عند كل الأمم غير التوحيدية،حيث كانت الآلهة تتحدى الناس وأبطالهم، أو تتحدى بعضها بعضا»[1].

بالوصول إلى هذه المحطة يصبح التساؤل عن أسباب إقامة صرح الإعجاز الهائل وما بُذل من جهود جبارة لأجله تساؤلا مشروعا،ويغدو الكشف عن دواعي التشبث بمقولاته حتميا لتبيُّن ما نتجت عنه تلك المقولات على صُعُد الثقافة والفكر من معضلات الفهم والعمل.

3- دواعي القول بالإعجاز:

إنّ عملية التحرّي عن الدوافع الكامنة وراء ابتداع مقالة الإعجاز والمنافحة عنها تقتضي إقامة مرصد لتأمّل النشاط العلمي للمتكلمين وتفحّص أساليبهم في بناء الأفكار وهندستها،ذلك أنّ هذه البيئة الأدبية والفكرية (بيئة المتكلمين) تعكس بخصائصها وسماتها ما درج عليه أصحابها من فنون التلاعب والتمويه وحب الغلبة ومقارعة الخصوم،وما دامت فكرة الإعجاز ابنة حَصانا لأفكار هؤلاء فلا جرم أنها ارتضعت من لبانهم واصطبغت بسماتهم واحتمت بحماهم، فلا غرو أن تتضمن من اللدد والخصومة والجدل ما يشكّل صورة مصغّرة عما كانوا عليه من تعجيز للآخر وتسفيه لآرائه،ومن إبهام باستملاك آليات القراءة والتأويل سعيا للسلطة وفرضا للهيمنة. ولعل تلك أهم الدواعي التي زيّنت القول بإعجاز القرآن لهؤلاء المتكلمين وهي دواع بحاجة إلى إضاءة حتى لا يُرمى مُفترضها بالشطط والتجني على ذوي قدم راسخة في أرض البلاغة وأولي عقول خصبة في ميدان العلم والمعرفة:

أ- تعجيز الآخر وتسفيهه:

منذ اندلاع المواجهة بين الفرق الإسلامية واشتداد النزاع بين رؤوسها تفشّى وباء حب التفوق والغلبة فكان السعي إلى امتلاك الأسلحة اللازمة لقهر الخصوم سعيا محموما،أغرى كل فرقة باستنفاد جهدها في توفير الأسباب الممكنة لذلك من حيلة ومكر ودهاء،وكان للمعتزلة النصيب الأوفر من تلك الطاقة والتمكن،فقد أتاحت لهم حنكتهم وفطنتهم العثور على السلاح السري الذي يحقق لهم النصر في معركة الوجود.

إن استخدام المعتزلة للنص القرآني - بما يمثله من مرجعية للأمة الإسلامية بمختلف طوائفها- وتوظيفه في الصراع والمواجهة ينم عن وعي هذه الفرقة بأن طريق التمكن والسيطرة يتم حتما بالاستحواذ على هذه الأداة،ولما كانت هذه الأداة مشاعا بين المسلمين فإن المعتزلة ألصقوا بها الصفة التي تجعلها طيعة في أيديهم وعصية على غيرهم. ومعنى ذلك أنه« إذا كان الإعجاز تبخيسا للعاجز وكمالا للمعجز،وإذا كانت البلاغة رفعة للكائن بها وتقليلا لغيره

[1]) المرجع نفسه، ص: 19.

ممن ليس هو مثله،فإن المعتزلة وهم العلماء بالبلاغة والعارفون بسر الإعجاز لا يقاسون بغيرهم ممن لا يملك علما ببلاغته ولا معرفة بسر الإعجاز »[1].

فليس اختراع المتكلمين المعتزلة لفكرة الإعجاز ووصفهم للقرآن بها اختراعا خالصا من شوائب الرغبة في تعجيز الآخر وإرباكه وتسفيه عقله وبخسه حقه في الفهم والتأويل،بل إن فكرة الإعجاز قد منحت للمعتزلة استعلاء لم يكن لهم أن يجدوه لولاها،فهان حينئذ في طلب تثبيتها كل عسير، حتى لا يكاد يُلفى في زمنهم أكثر اهتماما بها منهم وحديثا عنها في مؤلفاتهم،مما يشي برغبة جامحة في إقصاء الآخر واستبعاده من دائرة القدرة على فهم النص القرآني،وإنتاج المعنى وتوجيهه بما يخدم المصلحة ويثبّت أركان المذهب.

ب- الإبهام بالامتلاك الحصري لآليات تأويل النص القرآني:

لم يكن تعجيز الآخر وتسفيهه سوى مطيّة لإبهامه بعدم قدرته على الفهم وتحصيل المعنى،فتنحصر القدرة حينئذ لدى العقل الحصيف المكتشف لسر الإعجاز والحائز على براءة اختراعه،وهكذا يحوز ذلك العقل -دون منازع- أهلية تأويل النص القرآني لامتلاكه الآليات التي تخوله بناء الدلالة وإنتاج المعنى،وهذا يفسر اهتمام المعتزلة -أصحاب فكرة الإعجاز- بالبلاغة والفصاحة وطرق نظم الكلام،من أجل امتلاك رأس المال الرمزي؛إذ إن النص القرآني بناء لغوي صارم ومحكم،وهو خطاب يتميز بخصائصه البلاغية الفنية،والتي لا يمكن إدراكها والسيطرة عليها دون الوعي العميق بدور وقيمة البنية الاستعارية والمجازية للقرآن،« فمن الناحية اللغوية نجد أنه من السهل تبيان أن الخطاب القرآني يختلف عن كل خطاب آخر في اللغة العربية.إننا لا نقصد بالاختلاف هنا التفوق الذي ركزت عليه نظرية الإعجاز،وإنما نقصد المعطيات الشكلية والنحوية والمعنوية والبلاغية والأسلوبية والإيقاعية الخاصة بالقرآن والتي يمكن حصرها والكشف عنها عمليا.إن المجاز يلعب دورا حاسما في تشكيل بنية الخطاب القرآني.إنه هو الذي يتيح تغيير أو تحوير الوقائع الوجودية الأكثر يومية وابتذالا وتصعيدها وتساميها من أجل أسطرة وترميز مناخ الوعي الديني الجديد الذي يراد تأسيسه وفرضه (خلق الرأسمال الرمزي للإسلام)»[2].

وهكذا،تم للمعتزلة ما أرادوا؛فقد تبوّأوا -بتمكنهم من الأدوات البلاغية- مرتقى تقصر دونه همم غيرهم من الخصوم،باستثناء خصم عنيد نازعهم تلك الأدوات،مندمجا معهم في نسق الإعجاز مدفوعا بالدواعي نفسها ومستخدما الآليات ذاتها ومتطلعا للغاية عينها،وهذا الخصم هو فرقة الأشاعرة التي كانت مع المعتزلة في مضمار البلاغة والإعجاز كفرسي رهان.ولو

---

1) المرجع نفسه، ص: 21-20.

2) الفكر الإسلامي-قراءة علمية: محمد أركون،تر: هاشم صالح، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، ط:2، 1996،ص:72.

أن الاختلاف بحكم التنازع والصراع على امتلاك حق الفهم والتأويل،ألجأ الفريقين إلى ترسيم بعض الفروق في النظر والاستدلال فأسفر البحث عن أسرار الإعجاز إلى استئثار المعتزلة بمقولة الصرفة واعتماد الأشاعرة على مقولة النظم البلاغي .

إنّ نظرية الإعجاز باتخاذها للبلاغة ثوبا موشّى بالزخارف كانت تعرض نفسها على الناس في حلّة بديعة،يختفي معها عوار الجسد،هذا ما أدركه المتكلمون المعتزلة وتفطنوا له قبل غيرهم،« ولكي يتخذ مفهوم الإعجاز ثوبا قشيبا ويقبل الناس على ارتدائه طائعين مختارين فقد جعلوا نسجه بلاغة لحمة وسدى،فصار لدينا مذ ذاك "بلاغة الإعجاز" كما صار لدينا فيما بعد "الإعجاز البلاغي" الذي صار بدوره نموذجا للتأليف في مجالات كثيرة تبدأ بالأعجاز النحوي ولا تنتهي بالإعجاز الرقمي،كما في أزمنتنا المظلمة على كل صعيد»[1].

ت - السعي للسلطة وإرادة الهيمنة:

لم يكن الصراع بين الفرق الكلامية على حبة قمح لا تسمن ولا تغني من جوع،وإنما كانت المطامح ذات سقف عال،فقد شرعت فرق ومذاهب إسلامية الأسنة واقتحمت موارد الموت في سبيل تحقيق وجودها وإثبات مكانتها وقوتها،ومالت فرق أخرى إلى معركة اللغة والفكر تنافح عن آرائها بما تأتّى لها من عارضة البيان ودهاء العقل،والرغبة تحدو الجميع إلى بسط السيطرة على الآخر وتطويعه ومن ثم امتلاك أحقية تسيير المشهد الثقافي والتحكم فيه.

يبدو خلال هذا المشهد أن القائلين بنظرية الإعجاز لم يجدوا أمضى منها سلاحا لإقامة الناس في موقف المواجهة مع القرآن الكريم - المرجعية الكبرى لكل المسلمين-،تبخيسا لهم واستعلاء عليهم من أجل تحقيق مآرب السلطة والهيمنة،يقول منذر عياشي:«تقوم لعبة المعتزلة إذن على جعل العجز ذاتا والتبخيس كينونة عقيدة الأمة، ويُستثنى من هذا باطنا وظاهرا الراسخون في العلم والعارفون بالسر وصانعو المفاهيم وصاكو المصطلحات وبالطبع لا يوجد في الأمة أحد أرسخ منهم علما وأمسك بمفاتيح السر معرفة،كما لا يوجد من يستطيع أن يوازيهم أو يدانيهم،فهم حسب الصورة التي أرادوا أن يرسخوها علماء الله وليس الأمة وسدنة معارفه وأسراره،وهم نتيجة لذلك الجديرون وحدهم بأن يكونوا فوق الأمة سلطة،وإذا كان هذا هكذا فإننا نفهم اندفاعهم نحو السياسة ورغبتهم في الحكم »[2].

إن هذه الرغبة الجامحة للوصول إلى السلطة واحتلال العقل العربي والإسلامي منذ تأجج أوارها لدى المتكلمين المعتزلة قد دفعتهم إلى استخدام القرآن -عن طريق فكرة إعجازه- استخداما آتى ثماره،ولئن كان وصولهم إلى الحكم وامتلاك السلطة السياسية مؤقتا فإن آثار ما فعلوه بقيت راسخة موجهة للأمة إلى غير الوجهة التي أرادها القرآن الكريم وارتضاها لها،إن

---

1) القرآن إعجاز أم إبلاس، ص: 20.

2) المرجع نفسه، ص: 19-20 .

المعتزلة قد«أرادوا أن يكون لمعانيهم ومتصوراتهم ومصطلحاتهم وإجراءاتهم وأفكارهم وأجهزتهم المعرفية على هذه الأمة سلطان وهيمنة وحضور. وبالفعل،فقد احتلوا العقل المعرفي والعلمي والثقافي،وأحدثوا فيه ما ظل أثره باقيا إلى يومنا هذا،غير أن فشلهم الذريع والمريع والقهري في الجانب السياسي قد أدى بالتلازم معه إلى فشلهم في الهيمنة والحضور في الجانب المعرفي والثقافي»[1]،فقد نازعهم السلطة السياسية والمعرفية خصومهم الذين انتصروا عليهم، لكنهم لم يتحرروا من سلطان مقولاتهم وتصوراتهم كليا،معنى ذلك أن مخترعي فكرة الإعجاز من المعتزلة قد فقدوا حضورا فعليا على مستوى الوجود السياسي والاجتماعي،لكنهم حافظوا على الحضور الفكري،وبالتالي«إذا كان سلطان المعتزلة قد زال وجودا سياسيا وحضورا اجتماعيا ومذهبا دينيا، فإن سلطانهم المعرفي ما زال قائما فيما يخص القرآن: إعجازا وتحديا ونظما وبلاغة ومجازا وتأويلا. بل إن سلطانهم هذا يعدّ اليوم ميراث الأمة بكل فرقها ومذاهبها وجماعاتها »[2].

4- نتائج القول بالإعجاز:

لقد أفرز التمسك بنظرية الإعجاز ومقولاتها نتائج كثيرة يعدّها المدافعون عنها إيجابية؛إذ أسفر جهد الباحثين -حسبهم- عن بناء صرح عتيد كان بمثابة قلعة منيعة للتراث الإسلامي تتكسر عليها نصال المهاجمين له والمشككين فيه. لكن المتمعن في هذا الصرح يجده مؤسسا على شفا جرف هار،ذلك أن ما أُتخمت به المكتبة العربية في هذا المجال من المؤلفات كان في أغلبه ركاما كرّس انغلاق الفكر العربي الإسلامي على مقولات دوغمائية يُعتبر الخروج عنها نوعا من الهرطقة أو الكفر.

يبدو أنه من غير الممكن التفكير في إقامة صلح أو هدنة يُداهَن بها المدافعون عن نظرية الإعجاز بعد أن غدت نتائجها من بين الأسباب التي تشكم العقل العربي الإسلامي عن محاولة التحليق في فضاءات الإبداع على هدي من نور القرآن الكريم. وهذه النتائج الخطيرة يمكن رصدها في المعالم الآتية:

أ- استعباد العقل بعقدة العجز:

لعل أسوأ ما أفرزته نظرية الإعجاز هو تثبيتها لفكرة العجز العقلي للإنسان في استقباله للقرآن الكريم وتعامله معه،إذ إن انطباع فكرة الإعجاز وترسّخها في الأذهان جعل الإنسان يقبل على الخطاب القرآني إقبال العاجز المسلوب القوى،الذي تسيطر عليه عقدة الضعف والهوان وتكبله الأغلال التي أتى الإسلام محطما لها،يقول منذر عياشي:«أما الأمر الأول والخطير في حياة العرب الفكرية على الإطلاق،فهو استعمال الواسطي مصطلح الإعجاز،وذلك

1) المرجع نفسه ، ص: 18.

2) المرجع نفسه، ص: 22.

في كتاب له بعنوان: إعجاز القرآن. والسبب في كونه خطيرا هو أنه أورث العقل العربي"عقدة العجز" كما أورثت أديان أخرى الإنسان "عقدة الذنب" مع أن الإسلام جاء محررا له من كل عقدة»[1].

إن آثار عقدة العجز المكبّلة والساجنة للذات المتلقية للخطاب القرآني تبدو واضحة كلما أوغل العقل في الاستسلام لفكرة الإعجاز،ذلك أن تلقي الخطاب بمنطق التقديس المطلق يقيم الحجب الحاجزة بينه وبين مستقبله،فتتقلص وقتئذ مساحة تدبر القرآن التي حض مرسل الخطاب على توسيعها،ويصاب الوعي بالضمور نتيجة الفاقة التأويلية المصاحبة لتعطيل المدارك العقلية الفاحصة للنص،مع بقاء نشاط هزيل متعلق بالجانب التخييلي لا يمكنه إعادة إنتاج النص إلا بشكل سلبي يفتقر للفعالية التي تُرتجى من خطاب إلهي متوجه إلى الواقع بالبلاغ.

ب- تبخيس الذات بعدم الفهم:

مع ترسّخ عقدة العجز وتفاقمها يحدث ارتباك لدى المتلقي يتوهم جرّاءَه قصورَ مداركه عن الفهم،وهنا يفقد -كمستقبِل للخطاب- خاصية التبيُّن التي يفعّلها القرآن الكريم نفسه بوصفه مبينا،وأمام إثبات الخطاب القرآني لصفة التبيين أو البيان وقناعة المتلقي بالقصور تواجه الذات المتعاملة مع النص معضلة التوفيق بين عدم القدرة على التبيُّن وثبوت صفة التبيين للخطاب،ولأن المتلقي ههنا أمام نص إلهي محكم لا يمكنه أن يعود باللائمة عليه،فإن اللوم سيرتد إلى الذات بسبب فشلها في التواصل الإيجابي مع النص،وتكون نتيجة ذلك طبيعيا الشعورُ بالنقص والمهانة،وتنطبع في الذهن صورة مشوّهة للذات التي لم تفلح في القراءة والفهم، ويتحول الأمر بالتراكم إلى عملية تبخيس قارة للذات،ثم يُقنع صاحب الذات المبخسة نفسه أنّ التبخيس ضرورة حتمية لأنها وقفت ندا للقرآن بمحاولة فهمه والسيطرة عليه ! فيكون التبخيس حينئذ إما تكفيرا -بتعظيم القرآن - عن خطيئة التطاول على النص وإما جزاء عادلا لمحاولة إنزال النص إلى مستوى الفهم البشري.

يبدو الأمر من حيث المنطلق عاديا لدى كثير من الناس؛إذ « ثمة ميل لدى البشر إلى تبخيس الذات عند إعجابهم بشيء لكي يبدو هذا الشيء إزاء ذواتهم المبخسة مستحقا استحقاقا كبيرا للتعظيم و التبجيل »[2]،لكن ما يدعو للقلق أن يُستخدم تعظيم القرآن وتبجيله ذريعة لبسط السيطرة على الإنسان الذي جاء القرآن لتحريره وترقيته،ولا تكون عملية السيطرة فعالة ما لم يبخس الإنسان حقه في الفهم،وما لم يتم إقناعه بتبخيسه لذاته،وهذا ما فعله بعض علماء الكلام مستخدمين طلب القرآن من معارضيه الإتيان بمثله،فقد« قام نفر

1) المرجع نفسه ، ص: 15.

2) المرجع نفسه ، ص: 17.

من النخبة العالمة (المعتزلة) بتبخيس الذات والتقليل من شأنها واتهامها بالعجز،وذلك لكي يبدو القرآن الكريم إزاءها أعظم من أن تقوى نفس أن تأتي بمثله - وهو بالفعل لن يؤتى بمثله ولن يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[1].

وحتى لا تندرج هذه النخبة في إطار العجز والتبخيس فقد أوهمت الآخرين بامتلاكها للآليات الضرورية التي تسمح لها بإدراك سر الإعجاز على الأقل،فترتفع بذلك مرتبة فوق الذوات الأخرى المبخسة،وتلك الآليات تتجلى أكثر في القبض على الأداة البلاغية والقدرة على التحكم بها، وهكذا فقد« صار تبخيس الذات بوصفه ناتجا للتحدي ومصدقا للإعجاز قارّا في الفكر العربي كما صارت البلاغة الممثلة لمعرفة النخبة بأساليب الفصاحة هي الجهاز المفهومي الوحيد لقراءة القرآن ومعرفة مجازه وتأويله وما عاد من ممكن لأحد أن يرد هذه المفاهيم أو يراجعها ولا أن يخضعها للامتحان العلمي وللنقد والتدقيق خشية الوقوع في تهمة الكفر والزندقة»[2].

ت- التفاعل السلبي مع الخطاب القرآني:

يظهر مما سبق أن ما يميز القرآن الكريم -بوصفه خطابا موجها إلى متلق- من إمكانية الفهم والتأويل والاستيعاب قد تمت مصادرته واحتكاره،وأقيم حجاب حاجز بينه وبين الناس بحكم فقدانهم لآليات القراءة من جهة وبحكم الضعف أو العجز الملازم لهم من جهة أخرى،وهو عجز تزيده أغلال تبخيس الذات تعقّدا ورسوخا. وأمام هذا الوضع تُصبح الآيات التي وردت في القرآن الكريم واصفة له بالمبين والآيات الموجهة للمتلقي حثا له على التدبر والتفكر والتذكر فاقدة للفعالية التي يحقق الخطاب من خلالها أهدافه،كل ذلك بسبب التفاعل السلبي مع هذا الخطاب الحي الممتلك لكل المميزات التي تمنح البشر القدرة على التعامل معه بطريقة نافعة إيجابية،قال الله تعالى:"ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر" (القمر:17- 22 - 32-40): وقال تعالى:" كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب" (ص:28).

إن عودة الناس إلى القرآن الكريم مرهونة بالتخلص من عقدة العجز،ومحكومة بالنظر إلى ذواتهم المتلقية نظرة قررها القرآن الكريم قبل أن تحرفها أطماع البشر،إنها نظرة التكريم والتفضيل التي أرادها الله لعباده أجمعين،قال تعالى:"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (الإسراء: 70).

ج- المعضلات والمآزق:

أحدثت مقولة الإعجاز على المستوى الفكري معضلات ومآزق بقيت تطارد

---

1) المرجع نفسه ، ص: 17.

2) المرجع نفسه، ص: 22.

مؤسسيها والمدافعين عنها،ولقد كثرت الحلول التبريرية والتلفيقية التي حاولت التخلص منها، لكنها حلول تهافت بسرعة أمام النقد العلمي الصارم المسلّح بمنطق العقل وبنصوص الوحي،ومن أهم تلك المعضلات والمآزق معضلة سر الإعجاز ومأزق مراتب التحدي:

أولا - معضلة سر الإعجاز:

بعد أن وضع القائلون بالإعجاز الحجر الأساس له وأقاموا أعمدته وسقفه واجهوا معضلة حقيقية تتمثل في إدراك سر هذا الإعجاز،فالعقول توّاقة لمعرفة ما الذي جعل هذا الكلام العربي ممتنعا على البشر معجزا لهم،فبدأت المحاولات البحثية من فجر هذه النظرية تؤسس للمقولات المفسرة لسر تفوق القرآن على ما سواه من الكلام،وهو ما يعرف لدى أهل هذه الصناعة بوجوه إعجاز القرآن.

لقد اعتبر باحثون كثر هذا الباب من أصعب أبواب البحث في إعجاز القرآن،وبرروا ذلك بدقته وخفائه،قال الخطابي(319-388هـ): « قد أكثر الناس في هذا الباب قديما وحديثا،وما وجدناهم بعد صدروا عن ري،وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن،ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته »[1]،وهذا ما أدى إلى تعدد التفاسير إلى درجة تناقضها أحيانا،ولذلك قال العلوي: « اعلم أن الكلام في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزا دقيق،ومن ثم كثرت فيه الأقاويل،واضطربت فيه المذاهب وتفرقوا على أنحاء كثيرة»[2]،غير أن تطاول أمد البحث في المسألة لم يشف غليلا،ولو أنّ ثمة من اقتنع بما بلغه من اغتراف على كدر منه وقلة،وها هو مفسر من المحدثين يعبر عن ذلك تعبيرا صادقا بعدما رأى أن كل الركام الذي تجمع في باب البحث في إعجاز القرآن لم يكن مغنيا عن الوصول إلى الحقيقة،يقول محمد الطاهر بن عاشور:«لم أر غرضا تناضلت له سهام الأفهام،ولا غاية تسابقت لها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى،واقتنعت بما بلغته من صُبابة نزرا،مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن،فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل، وموردها للمعلول والناهل»[3].

إن غربلة الآراء والاجتهادات التي قُدّمت لتفسير إعجاز القرآن وبيان أسراره تُسفر عن ترشّح مقولتين كان أصحابهما كفرسي رهان،يتنازعان الصدارة ويتناطحان في مضمار بحث دائب،ألا وهما:مقولة الصرفة للمعتزلة ومقولة البلاغة والنظم لأهل السنة،وسبب الصراع بين المقولتين أن أولاهما بحثت عن سر الإعجاز من خارج النص،والأخرى بحثت عنه داخل النص.

من المعلوم أن المعتزلة هم أول من بحث هذه المسألة،وقد شاع لديهم تأويل سر

---

[1]) بيان إعجاز القرآن (ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، تح: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط:5، 2008م، ص:21.

[2]) الطراز: يحيى بن حمزة العلوي، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط:1، 1423هـ -2002م، 216/3.

[3]) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، 1984م، 101/1.

الإعجاز بما عرف في تاريخ دراسات الإعجاز بالصرفة. وعلى الرغم من الفساد الظاهر لهذه المقولة والانتقادات العنيفة التي وجهت لها إلا أن المعتزلة قد استمسكوا بها وأصروا عليها،والحقيقة أن تمسكهم بها لم يكن عبثا أو عنادا محضا،ذلك أنها بالنسبة لهم تسد فراغا للمعضلة التي لا يمكن حلها بالإصرار على فكرة الإعجاز مع اعتبار القرآن الكريم نصا لغويا لا يخرج عن سنن العرب في كلامها.

لقد كان أولى بالمتكلمين المعتزلة أن يراجعوا فكرة الإعجاز من أساسها -بعد اصطدامها بهذه المعضلة -لا أن يلجأوا إلى التبرير والتلفيق والمراوغة باعتماد مقولة فاسدة من أجل سد الفراغ لا أكثر،ولو أنّ بعض أهل الاعتزال (كالجاحظ والقاضي عبد الجبار) قد أدرك أن الإصرار على القول بالصرفة لا يقدم حلا شافيا،فحاول تدعيمه بمقولة النظم رغم التناقض الكبير بين المقولتين، لذلك فأصل المشكلة يبقى قائما وما القول بالصرفة إلا نوع من الهروب الذي مارسه المتكلمون تحاشيا للإحراج والضيق الذي أوقعوا فيه أنفسهم،خاصة وأنهم قدحوا أيضا زناد الدرس البلاغي وقدّموا للبلاغة العربية ما يزّ جهود الفرق الأخرى قاطبة إذا ما استثني الجهد السني الأشعري،فهذا التمكن من الأزمّة البلاغية والبيانية مع الانصراف عنه إلى مقولة الصرفة يشي بأن المعتزلة كانوا على وعي بأن التفسير البلاغي لسر الإعجاز لا يمكنه أن يحل المعضلة فاقترحوا حلا من خارج النص اضطرتهم إليه جسامة الورطة التي أوقعوا أنفسهم فيها. إن«استحضار الصرفة والقول بها - كما فعل بعضهم وأنكر عليهم الجاحظ [1]،وهو من بعضهم الآخر- استحضار فاسد وقول باطل لا يليق بالعقل الإنساني أن يتعلق به ... ولكنه دليل على أن جزءا من المعتزلة شعر أن مسألة الإعجاز مبالغ فيها، فأراد أن يخفف من وقعها فذكر أمر الصرفة»[2].

رغم أن خصوم المعتزلة من أهل السنة قد أدركوا ما تنطوي عليه مقولة الصرفة من الفساد الظاهر إلا أنهم لم يتنبهوا إلى وجوب العودة إلى السبب الذي أدى إلى هذه المقولة ومراجعته وتصحيحه،بل وقعوا في فخ المعتزلة فراحوا يبحثون عن تبرير آخر يسد الفراغ الذي أحدثه نفيُهم للصرفة فكانوا بذلك مندمجين في مقولة المعتزلة الأصل - مقولة الإعجاز- ومدافعين عنها.

---

1) يظل موقف الجاحظ مثيرا للاهتمام؛ إذ أوقعه البحث عن حل لهذه المعضلة في تناقض خطير: فهو مرة يقول بالصرفة انسجاما مع رأي المعتزلة، ويقول مرة بالنظم والبلاغة إصغاء لحسه البياني والبلاغي، « والمتأمل لكلام الجاحظ يجد أنه يجمع بين القول بالإعجاز البلاغي للقرآن والقول بالصرفة وهذا تناقض، ويبرر قوله بالصرفة بقطع شغب من يشغب على القرآن. ولذلك حكم عليه الرافعي بالتناقض والاضطراب في رأيه في إعجاز القرآن" القول بالصرفة في إعجاز القرآن - عرض ونقد- : عبد الرحمن بن معاضة الشهري، دار ابن الجوزي، ط:1، 1432هـ، السعودية ص:67. يُنظر أيضا كنقد لموقف الجاحظ: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ص: 102- 103. ومداخل إعجاز القرآن لمحمد محمود شاكر، ص: 66 وما بعدها.

2) القرآن إعجاز أم إبلاس: ص 17.

قدم أهل السنة حلّهم للمعضلة وتفسيرهم لوجه الإعجاز منطلقين من داخل النص على خلاف المعتزلة،فقالوا بأن سر إعجاز القرآن كامن في نظمه وبلاغته،ولكن هذه المقولة فتحت الباب لمشكلة أخرى،وهي تفسير وتحديد طبيعة وكيفية البلاغة التي كان القرآن بفضلها معجزا،قال الخطابي: « وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة،وهم الأكثرون من علماء النظر،وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ويصعب عليهم منه الانفصال،ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به،ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن،الفائقة في وصفها سائر البلاغات،وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة،قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام،وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده»[1]،وهذا التمويه لا يُقنع في المجال العلمي، فإما أن تُفسّر المسائل تفسيرا مقبولا أو تُردّ الدعاوى على أصحابها.

والحقيقة أن المتأمل للصراع -الذي دارت رحاه بين الفريقين- بعيدا عن مثار نقعه،يجد أن المعركة لم يُرد لها أن تضع أوزارها،لسبب وجيه،وهو الطمع في الاستحواذ على غنيمة سر الإعجاز،فمن يعرف السر يستولي على غنائم النص وأسراره،«ولما كانت هذه المعادلة تمثل أصلا عظيم الثقل في استراتيجية المعتزلة ومشروعهم الناهض لامتلاك السلطة بكل معانيها:المعرفية والاجتماعية والسياسية مستحقين فوق غيرهم ومن دون غيرهم،لكل ما يتطلعون إليه،فقد أرادت الفرق الإسلامية المتشكلة أو الآخذة في التشكل،أن تنافسهم فيه لإدراكها قوة مضائه سلاحا،وما يجلبه لها من رفعة ومكانة،وكان الأشاعرة على رأس هذه الفرق (...) وإذا وقفنا على الجرجاني بالذات فإننا نقرأ في تأليفه ومؤلفيه:دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة؛ردا على المعتزلة وتنكيسا لراية آرائهم واستهانة بمعارفهم وأفكارهم،وبالفعل فقد نافسهم وكان مثلهم أو أقوى باستعمال أدواتهم في الإعجاز والتحدي والنظم والبلاغة »[2]. إن من أشعل فتيل المشكلة كان يمتلك من المكر والخديعة ما يؤهله لإدارة الأمر كما يشتهي،غير أنه أساء تقدير شيء مهم،ألا وهو الدخول في حرب مواقع مع خصم عنيد يناوئه وينازعه إرادة الهيمنة والتوسع،ويرغب في بناء صرح سلطة أعلى بإيهام الخصوم والمحايدين امتلاكه للحقيقة عبر استحواذه على غنيمة الحرب الضروس.

ومهما يكن من أمر فإن الناقد المحايد والدارس الموضوعي يمكنهما أن ينظرا إلى الأمر من زاوية أخرى،بغض النظر عن غايات ومطامح المتصارعين،إذ يُسفر التحقيق لديهما

1) بيان إعجاز القرآن، ص: 24

2) القرآن إعجاز أم إبلاس، ص:20- 21 .

عن الحكم بتهافت فكرة الإعجاز برمتها،وما الصراع الدائر -بالإضافة إلى أسبابه وغاياته المذكورة آنفا- إلا عملية تخبط بائسة،وفشل ذريع في البحث عن حلول لمعضلة ليس لها وجود في الحقيقة إلا في أذهان مخترعي فكرة الإعجاز ومن نحا نحوهم،إنها معضلة حقيقية لفكرة وهمية !

ثانيا- مأزق مراتب التحدي:

لم تكن معضلة سر الإعجاز وحدها ما يمثل حرجا لأصحاب فكرة الإعجاز،فثمة مآزق أخرى ورّطت القائلين بها في عمليات تأويل تبريرية ما كان أغناهم عنها لو نكصوا على أعقابهم في عملية مراجعة نقدية لما تعصبوا له من القول بإعجاز القرآن، ولعل من أهم تلك المآزق: مأزق مراتب التحدي.

إن هذا المأزق يتعلق بأهم ركن وأهم شرط في المعجزة كما ينص على ذلك تعريف السيوطي الذي سبق ذكره،ألا وهو شرط التحدي بها. فقد اقتضى الحديث عن التحدي بالقرآن -وقد تعرض كمفهوم للنقد والنقض- وجود أنواع أو مراتب له استنبطها القائلون بالإعجاز،من منطلق أن المتحدّي لخصمه - وإمعانا في تعجيزه - يتنزل معه مرتبة بعد مرتبة إظهارا لعجزه وتوهينا لقدرته، ورفعا لشأن المتحدِّي،فكانت آيات الحض على المعارضة والمطالبة بالإتيان بمثل القرآن الكريم شواهد اتخذها المتكلمون والباحثون أدلة على وقوع التحدي .

لكن ثمة مأزقا تمثل في ترتيب المطالبة بالمماثل من القرآن كمًّا،وبيان ذلك أن مراتب التحدي حسب ما ذكر مستنبطوها من القرآن الكريم تبدأ أولا بالمطالبة بالإتيان بالقرآن كله في قوله تعالى: "فيأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين" (الطور:34)،ثم الإتيان بجزء مثله،كقوله تعالى: "أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات" (هود:13) وقوله تعالى:"أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين"(يونس:38) ،والمطالبة بسورة واحدة هو أقل ما يثبت به الإعجاز كما هي واردة في سورة يونس وسورة البقرة مع اختلاف في الصياغة.

إن الذين استنبطوا مراتب التحدي بالقرآن من هذه الآيات انطلقوا من مبدأ التنزل من الأصعب إلى الأيسر، لكن المشكلة التي عرضت أن المطالبة بالإتيان بعشر سور كما جاء في سورة هود أصعب من الإتيان بسورة واحدة كما نطقت به سورة يونس،وسورة يونس أسبق نزولا من سورة هود، معنى ذلك أنه طالبهم أولا بسورة ثم طالبهم بعشر سور،فكيف يصح التحدي والتعجيز على المبدأ الذي التزموه مع هذه المشكلة؟

أمام هذا المأزق كثُر التمحّل بحثا عن حل،فقد ذكر ابن عطية الأندلسي مثلا أن لا

إشكال في سبق النزول والتحدي بعشر سور وبواحدة لأن التكليفين سواء [1]،وقال سيد قطب في تفسيره:« إن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة،فيقول مرة: ائتوا بمثل هذا القرآن،أو ائتوا بسورة،أو بعشر سور،دون ترتيب زمني. لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن،كله أو بعضه أو سورة منه على السواء فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره، والعجز كان عن النوع لا عن المقدار،وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة ولا يلزم ترتيب،وإنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة »[2].

إن كل ما قيل من تبريرات لا يصمد أمام التناقض الذي وقع فيه المهندسون لفكرة الإعجاز وهم يستنبطون ما سمّوه بمراتب التحدي من آيات الحض والمطالبة بالإتيان بمثل القرآن أو بجزء منه. إن الحل الوحيد في رأينا هو نسف مقولة التحدي بكاملها بالنظر إلى تهافت فكرة الإعجاز،ومن منطلق أنهما لا تتناغمان مع روح القرآن الكريم الذي لم يأت لتحدي الناس ولا لتعجيز البشر وإنما لهدايتهم إلى التي هي أقوم. خصوصا وقد أفرزتا ماذكرناه سابقا من تبخيس للذات وتثبيت لثقافة العجز،"هذا يجعلنا نعود فنؤكد أن مفهوم التحدي ليس مفهوما إسلاميا،وإن صح ما نقول فإن عقيدة تبخيس الذات وثقافة العجز والإعجاز تكون باطلة من أساسها أيضا»[3].

5- تهافت فكرة الإعجازوالبديل المعرفي:

يبدو بعد كل ما سبق أن فكرة الإعجاز لم تكن غير برق خلّب،وإرعاد دون غيث نافع،فتهافتها قد استبان لذي اللب الذي لا يسعه إلا التخلي عنها طلبا للبراءة من نتائجها الوخيمة على العقل،وتخلصا من مآزقها ومعضلاتها،وليس الأمر بالهين اليسير أمام ركام معرفي هائل جعل جذور هذه الفكرة تمتد عميقا في تربة العقل والوجدان الإسلاميين،هذا الركام الذي -من بين فرثه ودمه- يصعب إخراج اللبن الخالص سائغا للشاربين.

ليس من الحكمة وصم كل ما بذله الباحثون طيلة قرون بأنه هباء جهود مضنية،ذلك أن الباحث عن الحقيقة يمكنه أن يبني من أنقاض وحجارة بيت قديم قصرا جديدا،خاصة إن كانت اللبنات لا تزال صالحة للاستخدام فهي -إذ ذاك- تجمع بين عتق الأصل ورونق التجديد،فعلى الرغم من هدم فكرة الإعجاز فإن الفراغ الذي تخلّفه يمكن سدّه بخير منها،أي أن ثمة بدائل معرفية تفضُل القول بالإعجاز والمعجزة،لأنها لا تنطوي على

---

1) يُنظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط:1، 1413هـ - 1993م، 155/3.

2) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط:10، 1401هـ- 1981م، 4/ 1861-1862.

3) القرآن إعجاز أم إبلاس ، ص: 19.

المعضلات والمآزق التي تثقل كاهل نظرية الإعجاز.

حاول الباحثان: محمود محمد شاكر ومنذر عياشي تقديم مبادرة لاستبدال مقولة الإعجاز بفكرة أخرى،فأما محمود شاكر فاعتبر أن من الخطأ إلغاء مصطلح الإعجاز ومرادفاته،وذلك لفشوّه في كتابات الباحثين منذ القديم وثبوته على ألسنة الناس،وقال ما نصه: « والألفاظ التي تستقر في اللغة استقرارا شاملا مستفيضا (يقصد الإعجاز والمعجزة) يكون من الجهل والتهور محاولة انتزاعها وإسقاطها من أقلام الكتاب،ومن كتب العلماء قديما وحديثا،بل الواجب الذي لا مرية فيه هو محاولة تعريفها تعريفا مطابقا للحق الذي نراه »[1].

لقد اقترح محمود شاكر فكرة الإبلاس كبديل لفكرة الإعجاز،«فالأمر ليس عجزا من الخلائق عن فعل طولبوا بمثله فعجزوا،أو يتوهمون توهما أنهم لو أرادوه لعجزوا عنه بل هو إبلاس محض من جميع الخلائق ودهش وسكوت ووجوم وإطراق أحدثته مباغتة الآية عند المعاينة ثم تسليم قاطع تستيقنه النفوس بأنها فعل ممتنع أصلا على هذا النبي وعلى جميعهم»[2].لكن المشكلة تبقى قائمة إذا ما رفضنا فكرة ما وأبقينا على الجهاز المصطلحي الذي تقوم عليه،لذلك لا مناص برأيي أن تُستبدل مقولة الإعجاز بكل متعلقاتها،بما في ذلك مصطلحاتها الأساسية كالمعجزة والإعجاز.

وأما منذر عياشيفاقترح استخدام مصطلح الإبلاس لأنه مصطلح له مشتقاته في النص القرآني وقال مبررا اعتماد الإبلاس كبديل معرفي للإعجاز:« وهكذا،فإن مدارات تأسيس الفهم في القرآن إنما تقوم على الإبلاس وليس على الإعجاز،وتأسيس الفهم هكذا هو أكرم للقرآن والإنسان،وأصدق تعبيرا ووصفا وحقيقة»[3]،غير أن تبريره استخدام هذا المصطلح تعوزه الحجة،فمشتقات العجز أيضا واردة في القرآن،والإعجاز والإبلاس بمشتقاتهما لم يوصف بهما القرآن الكريم في النص المنزّل،ولذلك فلا بد من البحث عن بديل معرفي آخر نُحدث به قطيعة مع مدلولات الإعجاز من جهة ونمد بينه وبين النص القرآني بسبب من جهة أخرى.

أعتقد أن البديل موجود من حيث الاصطلاح لكنه بديل مهجور منسي،لقد منحه إيانا الخطاب القرآني نفسه،والأمر سهل للغاية،فرفضنا لمصطلح الإعجاز كمصطلح مولّد يقودنا إلى التساؤل عن المصطلح الذي كان يسد مسدّه قبل اختراعه من لدن المعتزلة،وبالرجوع للتراث ونصوص الوحي المؤسِّسة نجد مصطلحات قرآنية دقيقة جدا في التعبير عن حقيقة القرآن الكريم، هذه المصطلحات هي:الآية،البيّنة،الحجّة،البرهان.

---

1) مداخل إعجاز القرآن، ص 18.

2) المرجع نفسه، ص 45.

3) القرآن إعجاز أم إبلاس ، ص: 28.

إن العودة للاصطلاح القرآني هي عودة إلى الأصل،فلا شيء يقدّم وصفا للقرآن أصدق من الله تعالى قائله ومنزله،وقد وصف الله قرآنه بأنه آيات بيّنات في مواضع عديدة،ووصفه بأنه برهان ونور مبين،وكفى بها أوصافا تدل فعلا على حقيقة الخطاب القرآني،قال الله تعالى:" بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم " (العنكبوت:49) وقال تعالى: "يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأرسلنا إليكم نورا مبينا"(النساء:174).

تكمن قوة مصطلحي الآية والبرهان في تواترهما في النص القرآني للدلالة على القرآن الكريم وعلى ما أيد به الله أنبياءه جميعا من حجج النبوة ودلائل الرسالة،فعلى سبيل المثال ذُكر مصطلح البرهان في قوله تعالى:"فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه" (القصص: 32)،وذكر مصطلح الآية في قوله تعالى: "ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية" (هود: 64).

هذا من ناحية الاصطلاح، أما من ناحية المدلول فإن اعتماد الآية والبرهان كبديلين عن المعجزة يعبّر عن روح القرآن الكريم بوصفه خطابا إلهيا مُرسلا إلى البشر لغاية هدايتهم والأخذ بأيديهم للخروج من الظلمات إلى النور،قال تعالى:"قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم"(المائدة:15-16). إن مفهوم الإعجاز مفهوم سلبي لا يمكنه أن يحقق هذا المعنى وتلك الغاية، فتعجيز المتلقي ورميه في زاوية إهمالٍ وتحقيرٍ لا يحقق للخطاب القرآني غاياته. وهنا تظهر أهمية البديل القرآني (الآية/ البرهان)؛فالمدلول الذي تحمله هاتان الكلمتان يتضمن كل المعاني الإيجابية لعملية التواصل والتفاعل الحي المثمر بين الخطاب ومتلقيه،فالآية والبرهان هما علامة على صدق النبوة وصحة الرسالة،وهما دليل يهتدي به القارئ المستقبِل للمعنى والمشارك في صناعته بالتأويل والاستنباط.

إننا إذ نتبع سبيل القرآن ونعتمد مصطلح الآيات البينات فلأن دلالة مصطلحي الآية والبرهان تنسجم مع مصطلح البيان الذي يميز الخطاب القرآني ويتضافر معه على فهم حقيقة الخطاب القرآني،ويمهد للمتلقي سبيل التفاعل الحي الإيجابي معه. فإذا كان الإعجاز يبثّ في المتلقي اليأس والإحباط ويقطع وشائج القربى بين القارئ والنص بتوسيع الهوة بينهما من خلال غلق المدلولات واحتكارها من جهةِ ترسيخ عقدة تبخيس الذات والتعجيز -وهو بذلك يحجب الخطاب عن أداء دوره وتحقيق فعاليته- فإن الآيات البينات تتيح للمتلقي فهما مستنيرا وتفاعلا مثمرا غايته الاستهداء بنور الوحي لصناعة الإنسان وبناء الثقافة وإقامة الحضارة.

إن الخطاب القرآني ليس خطابا معجزا لمتلقيه وإنما هو خطاب مدهش بقوة بنائه وببراهينه ودلائله،مبهر بخصائصه الفنية والبيانية، فهو الكتاب المبين الذي يعمل على إبهار المتلقي بالبيان والاستحواذ على إعجابه، وتلك وسيلته في مد جسور التواصل معه دون إشعاره بالنقص والهوان والعجز والتبخيس.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم .

1. الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: أحمد بن علي دار الحديث، القاهرة، 1425هـ-2004م.

2. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1425هـ-2005م.

3. البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

4. بيان إعجاز القرآن (ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، تح: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط:5، 2008م.

5. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، 1984م.

6. الطراز : يحيى بن حمزة العلوي، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط:1، 1423هـ -2002م.

7. الفكر الإسلامي - قراءة علمية-: محمد أركون، تر: هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط:2، 1996م.

8. في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط:10، 1401هـ-1981م.

9. القرآن إعجاز أم إبلاس: منذر عياشي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد: 85-86، ربيع-صيف2013م .

10. القول بالصرفة في إعجاز القرآن - عرض ونقد- : عبد الرحمن بن معاضة الشهري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط:1، 1432هـ.

11. لسان العرب:أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، تح: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة.

12. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط:1، 1413هـ - 1993م.

13. مداخل إعجاز القرآن: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ط:1، 1423هـ-2002م.

14. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: أحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة.

15- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الحديث، القاهرة، 1422هـ-2001م.